من القيم الخلقية القرآنية

- ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون . وأنك لعلى خلق عظيم ﴾

(سورة القلم/ ٣،٤)

- ﴿ .. ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾

(سورة آل عمران / ١٥٩)

- ﴿ خير ما أُعطى الناس خُلق حسن ﴾

(مسند احمد أبن حنبل حـ٤/ ٢٧٨)

- ﴿ إن من أحبّكم إليّ أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا.. الذين يألفون ويؤلفون ﴾

(البخارى: فضائل الصحابة /٢٧ - الترمزى البر /٧١ ،ابن حنبل حـ٤/ ١٩٢)

حملة القرآن على النفاق والمنافقين

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ (١).

لا تُفسد النفوس صفة كما تفسدها صفة النفاق، والنفاق إذا عشّش فى النفوس وانطوت على الخداع، والتوت فيها الحقائق، وانحطت الإنسانية إلى درك لم تخلق لأجله،فلقد خلق الله الإنسان ليعمر الأرض بالخير، ويطهر القلوب بالإخلاص، ويزكى النفوس بالعبادة، وهو فى هذه الصورة المشرقة قد جعله الله فى الأرض خليفة، ثم هو فى الجزء المقابل لهذه الصورة مخلوق نسى الله فنسيه الله، أو نسى الله فأنساه نفسه، وإذا نسى الإنسان نفسه لم يكن شيئا مذكوراً، وهو-حينئذ- ينحط إلى درك الحيوانية بل أضل من ذلك، لأن الحيوان هكذا خلق، وهكذا كان.. لم يتغير، ولم يغير نفسه، أما الإنسان الضال فهو الذى أؤتمن على أمانة فضيعها، ووكل إليه أمر شريف فخانه وأسند إليه رسالة فنكص عن أدائها، ولقد صور القرآن الكريم هذا الصنف من الخلق بقوله:﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام بل هم أضل ..أولئك هم الغافلون﴾(٢)،والذين يتصفون بصفة النفاق لا يرون وسيلتهم إلى مطامعهم فى المال ومطامحهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء، وهم يلقون الناس بوجوه متعددة الألوان، ويخاطبونهم بألسنة ناعمة الأقوال، ويخفون عنهم صدورا رديئة الخصال كما قال تعالى فيهم:﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسّندة﴾ (٣).

---

(١) النساء /١٤٢-١٤٣.

(٢) الأعراف /١٧٩.

(٣) المنافقون /٤.

والمنافق يحاول أن يرضى كل أحد بما يرضيه ويحببه إليه، ولاسيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضرهم، فهو يلبس للصالحين مسوح الرهبان، ويخلع أمام الفساق ثوب الحياء، ويضفى على المغرورين عبارات الإطراء، ولا تظهر هذه الصفة الذميمة إلا فى نفوس ضعيفة بين قوم أقوياء، فهى تخشى سطوتهم فتمالئهم، وتتقى بأسهم فتنافقهم، وتحاول أن تجد لهم مكانا بينهم فتعيش على الدس والخديعة، وتجعل الطرق الملتوية سبيلها إلى الوصول .

ومن هنا نتبين السبب فى ظهور المنافقين فى المدينة لافى مكة، فقد كان مجتمع المسلمين فى مكة مجتمعا مستضعفاً، يستخفون بدينهم من عدوان الكافرين، ويستخفون بأنفسهم من إيذاء المشركين، ولكن فى المدينة صار للإسلام قوة ودولة، إذ أسلم أكثر الأنصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم، ولكن هذا النور لم يظهر لكل فرد منهم على سواء فاضطر بعضهم إلى الدخول فيما دخل فيه قومه، وإلى الظهور بما ظهر به سائر الناس، فهم فى الحقيقة لم يؤمنوا بل مالئوا بتظاهر هم، و لم يقتنعوا بل داهنوا بألفاظهم . وسبيل الإسلام أن من أعلن إيمانه عومل بمقتضى هذا الإعلان كما يعامل سائر المسلمين، لأن قاعدة الإسلام هى الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ويحاسب على النيات .

وإذا كان الله ﷻ قد كره هذه الصفة الذميمة، وذم المتصفين بها، وتوعدهم بأسفل دركات النار يوم القيامة حيث قال:﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾، واستثنى منهم الذين تابوا عن النفاق، وأصلحوا أعمالهم، واخلصوا نياتهم لله حيث قال:﴿إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما﴾[1]،فإن هذه الصفة نفسها تتشكل فى نفوس أصحابها وتتلون كما تتلون الحرباء، فهم يرونها أحيانا فطنة وذكاء، ويسمونها أحيانا مرونة اجتماعية، وتدخل هذه الصفات على مجتمعاتنا الحديثة فتغير العلاقات وتلون أساليب المعاملات،وتجعل الرياء والمداهنة محل الصدق والإخلاص، ويكون ذلك أحيانا

(١) النساء /١٤٥ - ١٤٦.

باسم "الدبلوماسية" التى تلون بعض العلاقات على مستوى الدول والشعوب .ولقد قص الله علينا فى إحدى سور القرآن ما كان من علاقة بين اليهود والمنافقين فى المدينة، حيث كان أساس هذه العلاقة الغش والخداع، فلم تنفعهم معاهداتهم، ولم يصدقوا فى عهودهم فلا خير لأحد الفريقين فى الفريق الآخر:﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1].

وهكذا دائما تكون العلاقة التى يحكمها النفاق، هى علاقة لا أساس لها كالبناء على الرمال قد يرتفع،ولكن مصيره الأنهيار.

ولقد كان من حكمة الإسلام فى معاملة المنافقين بظاهر إسلامهم مع ترك سرائرهم إلى الله المطلع على ما فى القلوب، أن من يلتزم شعائر الإسلام وأحكامه ولو بغير إيمان يقينى قد يرجى له الخير فيذعن قلبه لما أذعنت له جوارحه، ويطمئن فؤاده لما أعلن بلسانه، والإسلام يحث أتباعه دائما على أن يعاملوا الناس على أساس من الجانب الخّير المتوقع منهم والمفروض فيهم .

ولكنه مع ذلك أيضاً لا يحب لهم أن ينخدعوا بالمظاهر البراقة تخفى وراءها حقائق كاذبة، ولا أن يميلوا مع ألفاظ معسولة فى طياتها حقد دفين، ولكنهم أن عاملوا الناس بما ظهر منهم، فانهم يجب أن يكونوا على حذر حتى لا يقعوا فى شراك نسجها لهم حسن نياتهم، ولقد كان عمر رضى الله عنه يقول :"لست بالخب، ولا الخب يخدعنى" ذلك لان المؤمن - كما قال نبى الإسلامﷺ- "كيّس فطن" والمنافق إن دارى حقيقته وراء مظهره، وان أخفى حقده وراء ابتسامته فانه مفضوح تنم عليه حركاته،وتعلن عنه رنة كلماته. يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ:﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرضٌ أن لن يخرج الله أضغانهم ولو

---

(١) الحشر /١١-١٢

نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول وا لله يعلم أعمالكم﴾[1].

فلقد وصفتهم الآية بأن فى قلوبهم مرضاً، وأى مرض اشد على القلب من التوائه وقد خلقه ا لله مستقيم الفطرة خالص الإتجاه ؟

كما أنهم مخدوعون، يظنون أن حقيقتهم خافية وسرهم مكنون، ولكن ا لله قادر على"أن يخرج أضغانهم" وكلمة "يخرج" هنا أبلغ فى فضحهم، وأبعد فى كشفهم فا لله يخرج أضغانهم ليطلع عليها كل ذى حس، ويراها كل ذى بصر.

فإذا لم يكشفها ا لله لعباده كشفا، و لم يخرجها أمامهم إخراجا، فإن ملامحهم الحائلة ونظراتهم الزائغة لتدل عليهم، وإنهم ليلوون ألسنتهم بالحديث كما التوت قلوبهم على حقيقة الايمان، فإذا بدت البغضاء من أفواههم، فإن ما تخفى صدورهم اكبر، ومن هنا فان المنافق يخدع نفسه قبل أن يخدع الناس، ويخفى الحقيقة عليها قبل أن يخفيها على غيره﴿ومن الناس من يقول آمنا با لله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون ا لله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فى قلوبهم مرض فزادهم ا لله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[2].

فالمنافق يرى نفسه ضعيفا ويرى غيره قويا فيرائيه وينافقه، وهو بذلك يكبت معالم الإنسانية فى نفسه، ومن أبرز ملامح الإنسانية إن ا لله خلقه حرا فصنع القيد لنفسه، وخلقه عزيزا فاختار لها الذلة والخنوع .

ولو سأل أصحاب النفوس الضعيفة أنفسهم: علام يحرصون وهم ينافقون الناس ؟ وما الذى يبغونه وهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم لوجدوا أنهم يتاجرون فى الجبن فلا يربحون إلا الندم، ويزرعون الشك فلا يحصدون إلا الشوك، ويحرصون على حياة هى أشبه بالموت .

وإذا كان القرآن قد عرض صورا من النفاق فى الدين والتظاهر فى العقيدة، فلقد

---

(١) محمد / ٢٩- ٣٠.

(٢) البقرة / ٨-١٠ .

امتد هذا النفاق حتى شمل كثيراً من جوانب الحياة، وحتى صار سلعة بتبادلها الناس فيما بينهم على كل المستويات.

ولكن كما اتسعت المعارف وتطورت المخترعات، فقد تبارى الناس في إيجاد المعاذير لحجب الحقائق، وفي كشف المبرر للظهور في كل وسط بلون، والتحدث في كل مجتمع بلسان .

وإذا شاعت هذه الصفة في المجتمع كانت كلمة الحق مرة على النفوس، ثقيلة على الآذان، وكان أصحابها وهم يحملونها كأنهم يجاهدون الناس بالسيف والسنان، ولكنهم رغم صعوبة موقفهم، ورغم ضخامة رسالتهم فانهم كبار في عيون الناس، وأمثلة طيبة في قلوبهم، وسيرة عطرة على ألسنتهم.

فلقد كان المشركون يحاربون الرسول ولكنهم يُكْبِرونه، ويعترضون طريقه ولكنهم يهابونه، لأنه جهر بكلمه الحق من أول يوم، ودعاهم إلى الحق فكان ذلك مفترق الطريقين ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لـوّوْا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين﴾[1].

الكبر والمتكبرون في تصوير القرآن

﴿ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واخفض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[2]، يحب الله المتواضعين من العباد ولا يحب المتكبرين، لأن التواضع يبرز الجانب اللين من الإنسان، فينجذب الناس إليه، ويحببهم فيه، وأما التكبر فهو التعالى عليهم، وهو الغرور الذي يعمى صاحبه من معرفة نفسه فلم يقدّرها و لم يضعها في مكانها الصحيح، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

---

(١) المنافقون /٥-٦ .

(٢) لقمان / ١٨-١٩ .

ويكفى فى تبغيض الكبر فى النفوس أن أول من مثّله هو إبليس، فجعله هذا الكبر يفضل نفسه على غيره، ودفعه كذلك إلى أن يتمرد على إرادة الله، فكان جزاؤه الطرد من الجنة، وكان مصيره الابتعاد عن رحمة الله، فهو يؤمر-كما تؤمر الملائكة- بالسجود لآدم، فتسجد الملائكة ويمتنع هو عن السجود، فيقول الله له:﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين﴾[1]، فهو قد امتنع عن السجود متكبراً، فأخرجه الله من الجنة صاغراً.

والتكبر تكلف الكبر، أى أن الإنسان يرى نفسه أكبر مما هو عليه فى الواقع، ولقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ ﴿لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر﴾ فقال رجل: أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا .. وفعله حسنة ؟ قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس . ويبين من هذا الحديث ان الكبر صفة تخالف رغبة الإنسان فى الظهور بمظهر حسن ، فإن الله لم ينهنا عن التزين والتمتع بالزينة، بل أباحها وحث عليها فقال:"يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"، وقال:"قل من حرم زينه الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق"، ولكن الكبر هو عدم الانقياد إلى الحق، وحرمان الناس من حقوقهم، وإنكار ماهم من فضل .

وهذا تفسير للكبر بمظهره العلمى الذى يترتب عليه جزاء، وهو أن المتكبر لا يذعن للحق إذا ظهر له، بل يدفعه أو ينكره تجبرا وترفعا، أو يحتقر غيره بقول أو عمل يدل على عدم الاعتراف له بمزيته أو فضله، أو بتنقيص تلك المزية بادعاء أن ما دونها هو فوقها سواء ادعى ذلك لنفسه فرفعها على غيرها بالباطل، أو ادعاه لغيره بأن يفضل بعض الناس على بعض بقصد احتقار المفضل عليه وتنقيص قدره .

ومن ثم فان الكبر -بناء على هذا التصوير- مزيج من الرذائل النفسية التقت فى نفس المتكبر فكانت صفة واحدة، ففيها الظلم الذى يدعو إلى إنكار حقوق الناس، وفيها الغرور

---

(١) الأعراف / ١٢-١٣ .

الذى يضل صاحبه، وفيها احتقار الإنسان لأخيه الإنسان وهو من أسوأ الصفات البشرية التى يحاربها الإسلام .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيﷺ قال" بحسب امرئ من الشر أن احتقر أخاه المسلم "[1].

وإذا كان إبليس -كما ذكرنا- هوالذى رفع راية الكبر وانقاد لنفخة الغرور، فإن هذا الكبر سيظل سمة شيطانية فى ظل كل متكبر، وكما امتنع إبليس من السجود لآدم حيث أمره الله، فقد منع كثيرا من المتكبرين الانقياد للحق الذى حمله أنبياء الله .منع فرعون عن الإستجابة للحق الذى جاء به موسى، ودعاه إلى اللجاجة والانقياد للهوى حتى رأى نفسه إلها فقال لقومه:﴿ ما علمت لكم من إله غيرى، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا انهم إلينا لا يرجعون ﴾[2]، والكبر أيضاً هوالذى منع قوم نوح من الإستجابة له، وركبهم غرورهم فقالوا له:﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾[3]، فلقد تكبروا على نوح لأنه بشر، وتكبروا على المؤمنين به فرأوهم اقل منهم، وتكبروا على الحقيقة نفسها حين جحدوا الفضل الذى يميز المؤمنين على الكافرين .

والكبر كذلك هو الذى حوّل وجوه قريش عن دعوة الحق التى جاء بها رسول اللهﷺ، وأبى عليهم غرورهم أن يضمهم والمستضعفين منهم مجلس واحد وان كان مجلس إيمان، وكان القرآن مع المستضعفين والمؤمنين على المتكبرين الكافرين ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشّى يريدون وجهه، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينه الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[4].

---

(١)رواه مسلم .

(٢) القصص / ٣٨-٣٩ .

(٣) هود / ٢٧ .

(٤) الكهف /٢٨ .

وليس للإنسان -إذا وعى- أن يتكبر وهو مخلوق، ناصيته بيد خالق مقتدر إن شاء حفظه وان شاء ضيعه، إن شاء أرسله وإن شاء قبضه، وإذا تبادر إلى وهم المخلوق انه كبير فليعلم إن الخالق أكبر، وأن الكبرياء -كما جاء فى الحديث القدسى- رداء الله لا ينازعه فيه أحد .

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " قال الله ﷻ: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني فى واحد منها فقد عذبته"[1]. على أن هذا المخلوق الصغير وهو إنسان يصير كبيرا إذا انتسب إلى خالقه، ويصبح عزيزا حين يستمد عزته من ربه، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين..ولكن المنافقين لا يفقهون .

والإسلام يزكى هذا الإنسان الربانى، ويدعوه إلى الاستمساك بهذه العزة التى هى من عزة الله، وليست من باب "العزة بالإثم" .

ولكن حين تتضخم شخصية الإنسان فينسى خالقه، ويستبد به هواه فينقاد لغروره ويرى نفسه كبيرا، وماعداه صغيرا حين ذلك يوقظه القرآن من أوهامه، فيذكره بأنه شئ صغير فى ملك الله الكبير، وهذا الإنسان أن كان كبيرا فإن الله اكبر﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقة فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء انشره﴾[2]، وحتى يطامن من غروره ولا يتمادى فى كبريائه فانه يلفته إلى اصل خلقه، والى انه من ماء مهين﴿ فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[3].

وكأن الذى يتكبر على غيره إنما يكذب على نفسه، لأنه يتجاهل أصله، ويتناسى الطينه التى خلق منها، ويدّعى انه من معدن غير معادن الناس، وهو فى الحقيقة يصنع لنفسه عالما من الوهم يقصيه عن الواقع ويبعده عن قلوب الناس فى الدنيا وعن رحمة الله

---

(١) رواه مسلم .

(٢) عبس /١٧-٢٢ .

(٣) الطارق ٥-٧ .

فى الآخرة، ولو علم انه بهذا الكبر إنه إنما يزيد النار وقوداً يوم القيامة ربما أشفق على نفسه ليدفع عنها العذاب .

عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- عن النبىﷺ قال:" احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكنهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتى أرحم بها من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء، ولكليكما علىّ ملؤها ﴾[1]،ولقد صنع هذا الكبر سورا عاليا بين الأمم فافتخرت كل أمة بنفسها وتاهت على غيرها، وظهرت تيارات عرفت فى عصر من العصور بالشعوبية، وهى افتخار جنس على جنس أو عصبية شعب على شعب، فرفعت ألمانيا يوما شعارا هو "ألمانيا فوق الجميع"، وسمت إنجلترا نفسها "بريطانيا العظمى"، أو "الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس"، ورأى اليهود أنهم "شعب الله المختار" وكان القرآن شمسا ساطعة يبدد هذه السحب المتكاثفة ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولاتنا بزوا بالألقاب بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾[2].

كما دعا هذا الكبر الأمم إلى الافتخار فقد منعها من اللقاء وباعد بينها وبين السلام .

وكما صنع بالأمم فقد صنع بالأفراد، فالرجل يعلن رأيا ثم يكتشف الحق فى غيره، فيمنعه الكبر أن يرجع إلى الحق فيتمادى فى الباطل، ويختلف الرجلان على شئ، وتتسع بينهما شقة الخلاف حتى يظهر وجه الحق فلا ينزل أحدهما عليه، ولايتنازل أحدهما لأخيه، فيضيع بينهما الحق ولقد لعن الله قوما ضاع الحق بينهم، ولقد حث رسولﷺ على لين الجانب وعلى التواضع بقوله:" أن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الحجرات /١١ .

يفخر أحد على أحد، ولايبغى أحد على أحد "[1].

ولقد هدد الله المستكبرين بصرف قلوبهم عن هداه، وإغفال أفئدتهم عن ذكره، لأنهم تمادوا فى طريق الباطل بغير حق فقال: ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق،وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها،وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل ألغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[2].

الإحسان إلى المسيئين من أخلاق المسلمين

﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا، وقال إننى من المسلمين، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم، وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها ألا ذو حظ عظيم﴾ [3].

يقولون إن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ومعنى ذلك أن الإنسان لم يخلق لنفسه، وإنما خلق للناس جميعا، فهو ينفعهم وهم ينفعونه، ويحرص عليهم فيحرصون عليه، ويميل إليهم فيميلون إليه .

وهذه طبيعة الإنسان، وقال عنه علماء الإجتماع: الإنسان مدنى بطبعه، أى انه بطبيعته مشدود إلى الناس، ميّال إلى التعارف عليهم والحياة معهم، ولا يميل إلى الانطواء إلا فى ظروف نفسية قلقة، أو كان مزاجه غير طبيعى فهو لا يألف ولا يؤلف .

والرسولﷺ يقول:" إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم لقيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون ".

وهى صورة مثالية لما يجب أن يكون عليه المسلم مع الناس: فهو حسن الخلق معهم، لين الجانب فى معاملتهم، وتلك من الصفات الطبيعية التى تجلب المودة وتحافظ على الأصدقاء، وُصف بها رسول اللهﷺ فقال: له ربه﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[4]، وبينّ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الأعراف / ١٤٦.

(٣) فصلت /٣٣-٣٥ .

(٤) القلم /٤ .

له إنها من عوامل استبقاء الناس حوله والتفافهم به﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [1] ، وجعل الرسولﷺ حسن الخلق من أعلى الصفات التى تدخل صاحبها الجنة، فعن أبى إمامة الباهلى رضى الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ "أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه"[2].

"والموطئون أكنافا" هؤلاء الذين تلتقى بهم فتلتقى فيهم بنفسك، وتحس فى مخالطتهم بالأمان، وتجد فى مودتهم الإخلاص، فهم على سجيتهم النقية وعلى فطرتهم الخالصة لا يتكلفون ولا يتصنعون، ولا يجيدون من القول بقدر ما يجيدون من الصدق فى المودة، لا لأنهم تعلموا الصدق درسا فاستوعبوه، بل لأنهم فُطروا عليه طبيعة فأحبوه والتعارف والتآلف من صفات المسلمين، فإذا التقى أحدهم بأخيه عرفه وعرّفه بنفسه، وإن من السنة التى علمنا رسول الله إياها أنه إذا أحب أحدنا أخاه فليخبره بذلك رجاء استبقاء المودة فى الدنيا وابتغاء الأجر عند الله، وذلك هو الحب فى الله، ولقد قال أبو إدريس لمعاذ: إنى أحبك فى الله عزوجل. فقال له: أبشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول اللهﷺ يقول: ينصب لطائفة من الناس كراسّى حول العرش. يفزع الناس وهم لايفزعون، ويخاف الناس وهم لايخافون، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون. قيل فمن هؤلاء يا رسول الله ؟ قال: هم المتحابون فى الله .

ولقد أوجد الإسلام للمسلمين مجالات كثيرة للقاء، يتعرف فيها القريب على البعيد، ويُصافح فيها الأبيض الأسود، وتذوب فيها كل القوميات والجنسيات إلا الأخوة فى الله، ومن هنا نستشعر الحكمة فى قوله تعالى:﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[3]،فالحج والصلوات الجامعة والمؤتمرات من مجالات التعارف بين المسلمين .

---

[1] آل عمران : ١٥٩ .

(٢) رواه ابو داود بإسناد صحيح .

(٣)الحجرات /١٣ .

والتعارف أول مراحل المودة والإخلاص، فليس كل من تعرفه تألفه، وليس كل من تلتقى به تميل إليه، فكم من حالات يتم فيها التعارف ويتبعها التنافر، لأن الأرواح - كما قال رسول الله ﷺ -"جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها أختلف، وكم من علاقة تسمى فى عرف المجتمع الحديث "صداقات"، ولكنها محكومة بالمنفعة وقائمه على الأهواء .

ولكن الصداقة فى عرف الإسلام هى "الحب فى الله"، أى الحب الذى لا تحدده غاية إلا رضا الله، ففيه الصدق وفيه الشفافية، وهو أقرب ما يكون إلى العبادة .

ومن أبرز ملامح هذا الحب التسامح والتغاضى عن العيوب، فإن من عداد المتقين الذين وعدهم الله بجنة عرضها السماوات والأرض".. الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس" .

لأن هذه الصفة إذا توفرت فى نفس الإنسان، فإنها تدل على حرصه على مودة أخيه والإبقاء على صداقته، فليس يخلو إنسان من عيب، ولا تخلو علاقة من شائبة، ومادام هذا العيب سيئة بجانب حسنات كثيرة، فان "الحسنات يذهبن السيئات"، ومادامت تلك الشائبة لا تطغى على العلاقة فتكدرها، فإنها كقشة صغيرة فى بحر كبير، و أى الناس تصفو مشاربه ؟ وكظم الغيظ درجة خلقية من درجات التقوى، لأن الغيظ يؤلم النفس ويستثيرها إلى التشفى والانتقام، فإذا كظم الإنسان هذا الغيظ فقد أمسك على ما فى نفسه من الألم وتذرع بالصبر، ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن خادما لها غاظها، فقالت:" لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء " .

ثم يأتى العفو عن الناس درجة أرقى فى التقوى من كبت الغيظ، إذ هو التغاضى عن ذنب المسيئ، والتحكم فى سورة الغضب، ثم هو محو الأثر النفسى السيئ الذى يشعر به المعتدى عليه تجاه المعتدى، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها قلّ من يتبوأها، لأنها سيطرة على اندفاع النفس فى الغضب، ثم غفران وصفح عن المسيئ .

فإذا أضيف إلى هذين المنزلتين-وهما عظيمتان- منزلة ثالثة هى الإحسان، كان الإنسان قد وصل إلى درجة عالية من الأدب النفسى، لأن الله يصف من كظم غيظه وعفا

عن المسيئ إليه بقوله:" ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور "[1]، فكيف به إذا كظم الغيظ وعفا عن المسيئ ثم أضاف إلى هاتين الفضيلتين فضيلة ثالثة هى الإحسان إلى من أساء إليه .

ولقد روى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديدا، فهمّ بالانتقام منه، فقال الغلام" والكاظمين الغيظ "، فقال: كظمت غيظى، قال الغلام:" والعافين عن الناس "،قال عفوت عنك، قال "والله يحب المحسنين " قال: أذهب فأنت حر لوجه الله .

فهذه الواقعة تبين الدرجات النفسية الثلاث لمقابلة الإساءة: كظم الغيظ أولاً، والعفو ثانياً، والإحسان ثالثا ولا يطالب بهذه المراتب إلا ذوو النفوس القوية والقلوب النقية، لأن الإنسان الطبيعى بمار كب فيه من بشرية يغضب للإساءة، ويثور للعدوان، ويرغب فى رد السيئة بسيئة مثلها، وهو فى ذلك ليس معتديا ولا جائرا، إنما هو بشر يعبر عن طبيعته البشرية، وقد أعطاه القرآن هذا الحق فقال له: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، ثم دعاه إلى المنزلتين الساميتين-العفو والإحسان- فقال له:﴿فمن عفا وأصلح فاجره على الله﴾ فواقعية الإنسان-كما أثبتها القرآن- أن يغضب وان يثور، وسموّه فى الإنسانية أن يعفو ويحسن، ولقد قابل النبىﷺ أشواك الطريق إلى الله بالصبر، وأحجار الأذى فى سبيل الله بالغفران، ولما عرض الله عليه أن ينتقم من الذين آذوه قال:"بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[2]، وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال: كأنى أنظر إلى الرسولﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموْه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون"[3]. ولنا فى رسول الله أسوة حسنة، نهتدى بها فى حياتنا، ونستضيىء بها فى تعاملنا، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يتعلمون منه، فعن ابى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله.إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ،

---

(١) الشورى /٤٣ .

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال :"لئن كنت كما قلت فكأنما تسفّهم المل- أى الرماد الحار- ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم مادمت على ذلك"[1]، والحسنة والسيئة لا تستويان فى نظر الإسلام، فالحسنة عنوان على اعتدال النفس وسلامة الطبع، والسيئة دليل على اعوجاج الخلق وانحراف الطبع السيئة داء والحسنة دواء، والمحسن بإحسانه يعطف القلوب النافرة، ويلين الطباع الخشنة،ويطامن من غلواء المعتدين، فإذا تحركت قلوبهم بهذا الإحسان أقلعوا عن العدوان، ونسوا موجبات العداوة﴿فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾.

ولأنها درجه عالية من درجات الإنسانية، ومرتبة سامية من مراتب الغفران، فلا يتهيأ لها إلا ذوو النفوس الكبيرة التى اطمأنت فلا تغضب، وإلا ذوو الحظ العظيم الذى أعد للمتقين، هكذا دعا الله﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾، وهكذا دعا الله نبيه ودعا المؤمنين به﴿خذا العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[2].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الأعراف /١٩٩-٢٠١.

ملامح الأخلاق فى النفوس

الاقتصاد فى اليمين والوفاء به

﴿لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أَو تحرير رقبة، فمن لم يجدة فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيماتكم إِذا حلفتم، واحفظوا إيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾[1].

ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى:" يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم " فى القوم الذين كانوا قد حرموا على أنفسهم بعض الطيبات التى أحلها لهم ، قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا خلقنا عليها فأنزل الله تعالى " لا يؤاخذكم الله باللغوفى إيمانكم" واللغو كما فسرته السيدة عائشة رضى الله عنها هو فى قول الرجل:"لا والله"،"بلى والله"،"وكلا والله". وما إلى ذلك، وهذا اللغو فى القول كالعبث فى الأفعال، فهو مالا يكـــون بقصد من القائل أَو الفاعل، فلا يعتدّ به .

والإنسان فى الواقع لا يلجأ إِلى اليمين إلا إِذا أراد أن يؤكد به كلامه، وهو لا يلجأ إِلى تأكيد كلامه إلا إذا كان يحس الشك من سامعه،أَو كان هو نفسه يعلم ان فى كلامه ما يستوجب التأكيد، ولكن الإسلام يعلم المسلم ألا يكون ثرثارا يبعثر كلماته فى كل مناسبة وفى كل مجلس، فلا يعبأ بما قال لأنه لا يدرى ماذا قال، ومن هنا سمى اليمين الذى يصدر فى هذا المجال"لغوا"، وعلى الرغم من إن الله لا يؤاخذنا به فإنه يجعله من نافلة القول، ومن الكلام الذى لا يؤبه به وخير للمسلم أن يحاسب نفسه على الأقوال كما يحاسبها على الأفعال ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[2]، ولقد قال أحد الحكماء إن الله قد أعطانا أذنين ولسانا واحدا لنسمع ضعف ما نتكلم، ولقد

---

(١)المائدة /٨٩ .

(٢)الأسراء /٢٦ .

حذر رسول الله ﷺ من جناية اللسان على الإنسان، ومن خطورة الكلام على مصيره فى الدنيا والآخرة، فيقول:"وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار يوم القيامة إلاحصائد ألسنتهم"؟!.

فإذا كان الإسلام بذلك قد دعا المسلمين إلى التحكم فى ألسنتهم فلا يصدر عنها إلا سديد القول، وحذرهم من اللغو ومن العبث بالأقوال والأفعال، فإنه أشد تحذيراً لهم من التواء القلوب التى تشوه الحقيقة، ومن تعقد النفوس التى تتعمد الكذب، وإذا كان لامناص للإنسان من أن يحلف فى بعض الأحوال، فليستحضر نفسا صافية وقلبا نقيا وعزما صادقا، وليحلف بالله سبحانه وتعالى فلا يحلف بغيره، فلقد روى أن النبى ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أوليصمت"[1]، وإن الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والآباء ونحو ذلك ليس من أيمان المسلمين، بل هو منهىّعنه باتفاق أهل العلم وحديث الرسول السابق أما أيمان المسلمين فهى الحلف بالله أو ما فيه معنى الحلف بالله، ويقصد بهذا الحلف تعظيم الخالق لا تعظيم المخلوق .

ولقد روى أن يهوديا أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تنددون (أى تتخذون لله أندادا)، وإنكم تشركون وتقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقول أحدهم ما شاء الله ثم شئت[2]، وذلك لبيان أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، وكان ذلك من عادة بعض الناس فى الخطاب، وليس المراد أنه كان مشروعا ثم نهى عنه لقول اليهودى وإذا كان الحلف بالله عقدا بين المسلم وربه على فعل أو ترك، فمتى عقد المسلم يمينه فقد وثق عقده، وأحكم نيته وعزمه، ولابد أن يكون لهذا العقد جلاله وهيبته واحترامه، لأنه عقد مع الله، وهذا يشبه البيعة التى بايع فيها المؤمنون رسول الله على الصدق فى الجهاد، فان الله يقول له:

---

(١)رواه الشيخان .

(٢) رواه أحمد والنسائى وصحيحه ابن ماجه .

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾[1]،ويحث الله على الوفاء بالعهد، والمحافظة على عقد الأيمان الوثيقة فيقول:﴿وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾[2] .

وإذا كان الله قد تفضل بالعفو عن أيمان اللغو فلم يجعل لها كفارة لأن عنصر النية مفقود فيها، فانه يكرهها، لأنها تعود الإنسان على التحدث بمالا يقصد، وعلى الله بمالا يحفل به .

والحساب على الأفعال متصل بالنية المصاحبة لها، ومن ثم فإن هذه النية يجب أن تكون ميالة إلى الخير نزاعة عن الشر، ويكره أن تكون معقودة على تحصيل شر أو تقويت خير، وإذا كانت كذلك فيجب أن ينقض الحالف عقدته، وأن يتحمل نتيجة هذا النقض، وهو الكفارة، ثم يكره فى النهاية أن يعمد المرء إلى نقض عقده مع الله حين لا يكون فى معصية، ويوجب الوفاء به، فإذا نقضه كانت الكفارة كذلك جزاء على نقضه .

وهذه الكفارة فى ذلك الوقت أشبه بردّ لاعتبار العقد الذى نقضه الحالف، وعودة إلى نية الوفاء من جديد، واعتراف من الحالف نفسه بأنه قد أخلّ بعهده وأن هذا الإخلال غير جائز، ومن ثم فإن الكفارة تحرك ضميره وتوقظ حواسه، فيعيش فترة نفسية يندم فيها على خطئه، ويعزم فيها على الالتزام بالوفاء فى عهوده، فلا تكون الكفارة حينئذ مقصودة لذاتها، وإنما لأثرها النفسى والأخلاقى على المطالبين بها .

ولقد تنوعت الكفارة فى اليمين، وتعددت أشكالها من إطعام للفقراء، أو كسوة للمساكين، أو تحرير للرقاب، أو صيام لبعض الأيام وذلك ليتحقق الشعور بالخطأ، وتتحقق الرغبة فى إصلاح هذا الخطأ فى أى صورة من صور الإصلاح .

ولقد قدم الله البر بالفقراء والمساكين فى كفارة اليمين على الصيام ليبين للناس أن بر بعضهم ببعض يرضيه، وأن رعاية الأغنياء للفقراء سبب فى رحمته وعفوه، وأن الصلة

---

(١) الفتح /١٠.　　(٢) النحل /٩١

الإنسانية الرحيمة تمحو كثيرا من السيئات، فإذا لم يستطع الإنسان لضيق ذات يده أن يكفر عن يمينه بالإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقاب، فليكن التكفير صياما لأيام متتالية بلحّ فيها الجوع والعطش على مشاعره، ويكون الحرمان فيها عاملا على إيجاده فى حالة وجدانية يعرف فيها خطأه ويجدد فيها توبته .

على أن لسان الإنسان قد يسبق نيته فيجرى باليمين ، أو قد يسيطر عليه غضبه فيحلف على فعل شئ كانت المصلحة فى تركه ، أو على ترك شئ كانت المصلحة فى فعله ، ومن هنا يكون تحقيق المصلحة أرجح من البر باليمين ويكون الخير فى الحنث فيه ، ولا بأس حينئذ أن يحنث فى هذا اليمين ليحقق المصلحة ، وان يكفر عن حنثه ليتعود على التروى فيما يقول . وروى أحمد والشيخان أن رسول الله ﷺ قال: " إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيراً منها ، فائت الذى هو خير ، وكفر عن يمينك " . ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على تحريم ما أحل الله له فى واقعة معلومه ، وامتن عليه وعلى المؤمنين بأنه فرض لهم تحلة أيمانهم ، وذلك مبين فى أول سورة " التحريم " حيث يقول الله عز وجل ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴾ [1] وإذن فإن اليمين قيد يقيد الإنسان نفسه . وعهد يلزمه الوفاء به ولا يسعى الإنسان إلى القيد إلا إذا كان هناك مبرر له ، ولا يربط نفسه بعهد إلا إذا قدم النية على الوفاء به .

وكثيراً ما يعمد بعض الحالفين إلى أسلوب ملتو ليدخلوا على سامعيهم فكرة معينة فهم يحلفون على شئ ويقصدون بنياتهم شيئاً آخر ، أو يحلفون بألفاظ تحتمل تأويلات متعددة ، وهم بذلك يحسبون أنهم لم يحلفوا على شئ ، أو لم يحنثوا فى يمين .

ولكن أمر اليمين مبنى على العرف العام بين الناس لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع ، ولقد روى أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ "يمينك على ما يصدقك به صاحبك " .

---

[1] التحريم /١-٢.

فليحذر الذين تسرع ألسنتهم إلى الحلف من الكذب ، وليقتصدوا فى أيمانهم حتى لا يوقعوا أنفسهم فى الحرج ، وليعلموا أن الأيمان التى تكون وسيلة إلى هضم حقوق الناس أو إلى الغش والخديعة لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من التوبة وأداء الحقوق والإستقامه ، فلقد قال النبي ﷺ : " من حلف على يمين وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان " (١)

وقال تعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾(٢)

تهذيب الكلام وتهذيب الإستماع

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾(٣)

يحب الإسلام من المسلمين أن يحرصوا على فضائله ، وأن يتأدبوا بآدابه ، والمؤمن إذا تحرك لسانه كان نطقه ذكرا ، وإذا صمتت جوارحه كان صمته فكرا ، فهو لا يتكلم إلا بخير ، ولا يختار لسمعه إلا ما هو خير ، وإن ربنا عز وجل لينبه مشاعرنا إلى أهمية اختيار ما نسمعه وما نراه وما نفكر فيه فيقول : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

وإذا كان الكلام شهوة عند كثير من الناس ، فان من صفات المؤمن أنه يتسامى على شهواته فيهذبها ويرتفع بها ويتحكم فيها، فهو يتكلم حين يكون الكلام ضرورة لا بد منها ، فيدلى مثلاً بالشهادة ولا يكتمها فإن من يكتمها فهو آثم قلبه ، والصمت حينئذ نكوص من الشهادة وتخلف عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) سورة النحل / ٩٤ .

(٣) سورة الأنعام /٦٨، ٦٩ .

ولكن حين يكون الكلام ثرثرة لا تؤدى إلى شئ ، أو نجوى تستهدف نهش الأعراض وإيذاء الناس ، فإن الإمساك عن الكلام حينئذ واجب ، وإن الإمتناع عن سماع هذا الكلام حينئذ حكمة ، ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم .

وإن إجتماع الناس فى مكان ما لا يخلو من متكلم وسامعين ، ولا يمكن أن يلتقى الناس على صمت الا فى مواضع خاصة ، بين بعضها رسول الله ﷺ فى قوله : " إن الله تعالى يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة "[1] فالصمت عند تلاوة القرآن لتدبر معانيه وتأمل أحكامه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ وعند التقاء الصفوف فى الجهاد لأن السكوت أهيب وأرهب ، وعند الجنازة لتأمل حكمة الحياة والموت، ومن ثم فقد كان الرسول اذا شهد جنازة أكثر الصمات وأكثر الحديث إلى نفسه .

ولكن الأحاديث تستهوى الناس ، والمسامرات تجذب النفوس، وتضيع أوقات كثيرة بين كلام المتكلمين واستماع المستمعين ، فلا يكون الهدف من قضاء هذه الأوقات الا التسلية وإزجاء الفراغ الطويل ، والإستمتاع بتعليقات الظرفاء من الناس ودعابات المازحين والمتفكهين .

وفى مثل هذه الجلسات يطلب من المؤمنين أن يفرزوا الخبيث من الطيب ، وأن يميزوا بين الغث والسمين ، وأن يتزودوا بملكاتهم الواعية وفطرتهم السليمة ليختاروا لأنفسهم ما ينفع ، ويختاروا لأسماعهم ما يفيد . فليس كل ما يتكلم به الناس نافعاً وإن كان ممتعاً ، وليس كل ما يسمعونه طيب الأثر وإن كان خفيف الظل .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله عز وجل :﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما﴾ [2] .

---

[1] للطبرانى فى الكبر

[2] النساء : ١١٤ .

فلقد نفت الآية الخير عن كثير مما يجرى بين الناس من نجوى ، واستثنت من ذلك ما يكون من النجوى فى الخير كالأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ، فتلك من الأبواب الطيبة التى تطرقها الأحاديث فتؤدى إلى الآثار المحمودة بين الناس .

وليس معنى ذلك أن يلتزم المسلمون باتجاه واحد فى أحاديثهم، وأن يتقيدوا بصرامة الجد فيما يقولون فلا يعرفون البسمة ولا يطيقون المزاح ، فلقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، ولكنه لا يقول إلا صدقا. ولكن المقصود من ذلك أن يكون الكلام فيما يفيد ، فإذا لم يكن فيما يفيد ، فلا يكن فيما يضر ، فإن الكلام فى الشئون الخاصة كالزراعة والتجارة وغيرها من الكلام المباح الذى ينظم أمور المعاملات فى الحياة .

ولقد خاطب الله المؤمنين لتنظيم أمور أحاديثهم ونجواهم بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى اليه تحشرون ﴾[1] .وأبواب البر والتقوى كثيرة لا يحصرها الإسلام فى وجه واحد من الوجوه ، ولكنه يعددها ولا يحددها حتى يقبل الناس عليها كل بحسب استعداده ، وكل بحسب طاقته .

ولقد بين رسول الله ﷺ كثيراً من أبواب البر أمام المسلمين فى قوله فيما يرويه أبو هريرة عنه : " كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الإثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ـ وتميط الأذى عن الطريق صدقة "[2] .

والعبرة المستفادة من آداب الإسلام فى الصمت والكلام أن يختار الإنسان الكلمة التى يتكلم بها ، كما يختار الوقت الذى يتكلم فيه ، وأن ينتقى الكلمة التى يسمعها ، كما يحدد المجلس الذى يجلس فيه ، فقد لا يعبأ بكلمة يقولها أو كلمة يسمعها فتجره هذه الكلمة الى عواقب وخيمة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : " إن

---

[1] المجادلة /٩

[2] متفق عليه .

العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب " [1] أو إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى بالا يهوى بها فى جهنم [2] والمتكلم الذى لا يلقى بالا إلى ما يقول من ألفاظ ، كالطاعم الذى لا يعبأ بما يلقيه فى جوفه من طعام ، فكلاهما يضر نفسه بغفلته ، وكلاهما أخضع نفسه لشهوته ، وكما طلب الإسلام من المسلمين حماية أنفسهم بتنظيم طعامهم فقال رسول الله ﷺ : " ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " ، ولقد طلب منهم أن يحفظوا ألسنتهم وأن ينظموا أحاديثهم لتنظم حياتهم ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : " إذا أصبح ابن آدم ، فإن الأعضاء تكفر اللسان أنها تذل وتخضع له ليتقى الله فيها وكأنه القائد الذى يقودها ، فإذا أحسن القيادة فقد أدى بها إلى نتيجة حسنة ، وإذا أساء القيادة فقد عرضها لعاقبة وخيمة .

ولقد قال المثل العربى : (المرء مخبوء تحت طى لسانه) ، لأنه يظل مجهول الشخصية غير واضح النفسية ، فإذا تكلم أفصح لسانه عنه ، وشهد كلامه له أو عليه . فقد يدعو مظهر الإنسان إلى احترامه، وقد تدعو هيئته إلى مهابته ، ولكنه إذا تكلم لم يتطابق قوله مع مظهرة ، ولم تتفق كلمته مع هيئته ، وحينئذ يضيع احترامه وتسقط مهابته حيث كشفه كلامه ونم عنه لسانه . وقد يهزل الإنسان فينال بهزله من الناس دون أن يقصد الإيذاء ، وهزله حينئذ عبث يترفع الإسلام بالمسلمين عنه ويحذرهم منه ولو كان لغواً لأنه يريد أن يعودهم على الجد من جهة ، وعلى إدارة الكلمات فى نفوسهم قبل أن تدور على ألسنتهم من جهة أخرى ، فإن كان مزاحاً فليكن حميداً لا يؤذى ولا يضر .

ولقد حكت عائشة رضى الله عنها واقعة حدثت منها أمام رسول الله ﷺ

---

[1] متفق عليه .

[2] رواه البخارى .

فقالت : قلت للنبى ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا - تعنى أنها قصيرة - فقال : " لقد قلت كلمه لو مزجت بماء البحر لمزجته " [١] أى خالطته مخالطه يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة تأثيرها .

وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن إطلاق اللسان فى عيوب الناس وإن كانت على سبيل الدعابة والمزاح ، ويكفى فى ذلك أن يسأل رسول ا لله ﷺ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فيجيب سائله : ثكلتك أمك . وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم " ﷺ[٢] ؟!

وكما يطلب من المسلم أن يحفظ لسانه فلا ينطق الا بالخير ، ولا يتكلم الا فى النافع له وللناس فانه يطلب منه أن ينزه سمعه عن فحش القول وعن بذىء الكلام ، يقول ا لله تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[٣] فهم منصرفون عن اللغو من القول : لا يفعلونه لأنهم عودوا أنفسهم على الجد من القول ، ولا يسمعونه لأنهم يؤمنون بمسئوليتهم عن السمع والبصر والفؤاد . فإذا كان الكلام سخرية أو لمزا فهو أولى بالنهى وأجدر بالتحذير عن قوله وسماعه ، بل يكون المسلم إيجابياً إذا سمع هذا الكلام فمنعه ، ورد الأذى عن أخيه ، فعن أبى الدرداء رضى ا لله عنه عن النبى ﷺ قال : " من رد عن عرض أخيه ، رد ا لله عن وجهه النار يوم القيامة " [٤] ولقد نهانا ا لله عن السخرية واللمز فقال: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون [٥] . ﴾

---

[١] رواه أبوداوود والترمذى

[٢] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

[٣] القصص :٥٥ .

[٤] رواه الترمزى وقال حديث حسن .

[٥] الحجرات :١١ .

الرضا بالرزق والعفة فى الطلب

﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾[1] .

فى طبيعة الإنسان حب المال والحرص عليه والعمل على استثماره وتنميته ، و لم ينكر عليه الإسلام هذه الرغبة ، و لم يحارب فيه هذه الطبيعة ، بل دعاه إلى السعى والعمل وعن طريق السعى والعمل يجمع المال ، وبالمال يفتح أبوابا للخير ويكون من المنفقين فى سبيل الله .

ولكن إذا كان الإسلام يدعو إلى جمع المال لإنفاقه فى وجوه البر ، فانه يدعوهم لأن يجعلوه فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وفى داخل جيوبهم لا فى طيات نفوسهم ،أو بمعنى آخر يدعوهم إلى أن يستولوا على المال ، ولا يرضى لهم أن يستولى المال عليهم ، فالمال يخدمهم ولا يخدمونه ، ذلك لأن حب الإنسان للمال غريزة ، والغرائز ظواهر فطرية فى الإنسان فلا سبيل إلى إنكارها ولا إلى كبتها ، ولكن هناك سبلا إلى إعلائها كما يقول علماء النفس، والإنسان ينظم غريزته فتخدمه ، ويضعف أمامها فتلتهمه . ومن هنا يحث الإسلام أتباعه على أن يطلبوا الأمور بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير ، فطلب المال محمود ، ولكن التكالب عليه مذموم ، ولا تقاس ثروة الإنسان فى نظر الإسلام - بكثرة المال ، ولكن بقوة النفس ونقاء الضمير ، و " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " [2] وغنى النفس معنى شامل لكل المعانى الإنسانية ، لأن المتصف به مطمئن الخاطر مرتاح الضمير ، لا يأخذ بصره بريق الحياة ، ولا تذهب نفسه لما فى أيدى الناس ، ولا تلعب به من الأطماع ما يؤرقه وما يرهقه ، فقد استغنى بقناعته عن الغرض ،

---

[1] البقرة /٢٧٢ - ٢٧٣

[2] متفق عليه .

واستغنى برضاه عن المتاع . عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فاعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى، ثم قال : يا حكيم . إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بأشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان الذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " قال حكيم: " فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ، فكان أبوبكر رضى الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى ﷺ حتى توفى . [1]

حكيم هذا مثل من الأمثلة البشرية الواقعية ، فهو يسأل المال فيعطاه، ثم يعرف قيمته فيتعفف عنه ويزهد فيه ، ولا يطلبه الا بعفة نفس ، ولا يأخذه الا عن طيب خاطر .

وحسب الإنسان راحه بال أن يأتيه الرزق بعزة نفس ، وأن يحوز المال براحة ضمير ، فإذا أنفقة أنفقه وهو يعلم الغاية من كسب المال والوسيلة إلى إنفاقه ، وإذا ضاع منه المال لم يحزن على شئ عزيز ضاع منه ، فشأن المال أن يأتى ويذهب ، ولا يبقى بعده الا الأحاديث والذكر ، وبهذه المشاعر المطمئنة يعيش حياته فلا يفرح لشئ أصابه حتى يبطره الفرح ، ولا يأسى على شئ فاته حتى يقتله الأسى ، فمن بات آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

ولأن المؤمن يعلم أن المال رزق ، وأن الرزق مكفول ، لأنه ﴿ ما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[2] فهو يبيت قرير العين راضى النفس ، مطمئناً إلى قضاء الله ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾[3] وعلى هذا أيضاً تأدب صحابة رسول الله ﷺ ، تعلموا منه دروساً ، وأخذوا منه قدوة ، ووضعوا

---

[1] متفق عليه .

[2] هود : ٦ .

[3] الحديد :٢٢ - ٢٣ .

المال حيث يجب أن يوضع ، ونظروا اليه النظرة اللائقة به ، فلم يحتقروه حتى يكفوا عن طلبه ، ولم يتشبثوا حتى يؤلهوه فلقد روى عن عمر بن تغلب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبى ، فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالا ، فبلغه أن الذين تركوا عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد فو الله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ، ولكنى إنما أعطى أقواماً لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب " قال عمر بن تغلب : فوالله ما احب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم .[1]

فالرسول ﷺ هنا يعطى فلا يكون الإعطاء دليلاً على الرضا ، ويمنع فلا يكون المنع دليلاً على السخط ، ولكنه لا يريد أن يتعلق أصحابه بغاية قريبة أو عرض زائل ، إنما هم يجاهدون فى سبيل الله ، فيجودون بالمال ويجودون بالنفوس التى هى أغلى من المال ، لأنهم يتاجرون مع الله ، والله قد اشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ، أفيربطون غايتهم بعد ذلك بعرض قريب وأجر عاجل ؟! .

وهكذا يجب أن يكون المؤمنون فى كل زمان ومكان : ثروتهم فى القناعة التى تغنيهم عن كل شئ ، وجنتهم فى رضاهم الذى يجعل مشاعرهم برداً وسلاماً ثم هم بعد ذلك يرون الأرض ذلولاً فيمشون في مناكبها ويطلبون الرزق الحلال من الله فى غير إفراط ولا تفريط .

ولقد كان على بن أبى طالب يقول : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ورزق يطلبك . فإن لم تأته أتاك غير أن الرزق لا يأتى عفوا ، ولا يدق على الناس أبوابهم ، وإنما هو مكفول بشتى نواحى العمل والحركة والنشاط ، ومقيم حتى يأتيه طلابه ويسعى إليه خطابه .

والله جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء وينزله بقدر على من يشاء ، فلقد ورد فى

---

[1] رواه البخارى .

الحديث القدسى " إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه الا الغنى ، ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن من عبادى المؤمنين ، من لا يصلح إيمانه الا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك "

ولقد عرض القرآن لصورة من صور التعفف فى طلب المال مع شدة الحاجة إليه وجعل لها نموذجاً أولئك الذين أحصروا فى سبيل الله ، فعجزوا عن طلب الرزق لسبب خارج عن إرادتهم ، فهم :"لا يستطيعون ضرباً فى الأرض " ، ولا يجدون إلى السعى على الرزق سبيلا ، ولكن نفوسهم أكبر من أن يتعرضوا لسؤال الناس ، وعزتهم أغلى من المال الذى يعرضهم للهوان ، فيلوذون بالصمت ، وينطوون على الآلام ، حتى ليخيل إلى من لا يعرفهم أنهم أغنياء .

وذلك فى الواقع لون من الغنى النفسى يرفع صاحبه فى عيون الناس ، ويحيطه بمهابة قد يغبطه عليها كثير من ذوى الجاه والسلطان ، وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله : " ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمه واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " [1] وهو من الذين يصفهم القرآن بقوله " لا يسألون الناس إلحافا " أى لا يسألون الناس شيئاً مما فى أيديهم سؤال إلحاح ، وإذا كان ظاهر الآيه نفى الإلحاح فى السؤال لا مطلق السؤال ، فإن ظاهر السياق يفيد نفى السؤال مطلقاً ولقد روى أحمد وأبوداود عن رسول الله ﷺ قوله : " من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمرجهنم . قالوا : يارسول الله . وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه " . والأصل فى المؤمن أن يكون عزيز النفس ينزهها عن السؤال ما استطاع ، وينبغى أن يجعل الغنى قدراً معيناً من ماله الذى يعده للصدقات لما يعرض من الحاجات والضرورات حتى لا يلجئ إخوانه إلى السؤال .

أما أولئك الذين احترفوا السؤال وهم قادرون على العمل فلا حق لهم فى العطاء ولقد رأى عمر رضى الله عنه سائلاً يحمل جراباً فأمر أن ينظر ما فيه فإذا هو خبز ، فأمر

---

[1] رواه الشيخان .

بأن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

ولقد دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى ترك المسألة لأنها لا تحل الا لثلاثه : لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع ، وقال لبعض أصحابه : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقالوا : قد بايعناك يارسول الله . فعلام نبايعك ؟ قال:" أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا الله "وأسّر كلمة خفيفة"، " ولا تسألوا الناس شيئا " ، فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه [1] .

غير ان الرسول ﷺ لم يكن يقصد السؤال الذى يدل على تعاون المسلمين بعضهم مع البعض الآخر ، ولكنه كان يقصد السؤال الذى يصدر عن غير حاجة ، وهو الذى يعذب به صاحبه يوم القيامه ، وقد روى أحمد ومسلم وابن ماجه عنه ﷺ : " من سأل الناس أموالهم تكثرا ، فانما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو يستكثر " .

وخلاصة القول أن الإسلام يربى المسلمين على عزة النفس ، ويرفع هممهم حتى تعلو على المعانى الأرضية التى ارتبطت بها همم الناس ، فإذا احتاجوا أخذوا عن تعفف وغنى نفس ، وإذا أنفقوا أنفقوا عن سماحة وإيمان ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [2] .

---

[1] رواه مسلم .

[2] الحشر /٩ .

أداء الأمانة من الدين

قال الله تعالى:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها﴾[1] ،وقال:﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[2] .

الأمانة سمة فاضلة من سمات الانسان، اودعها الله فى طبيعة البشر، فهم بها يتعاملون مع الله، وهم بها يتعاملون مع بعضهم البعض، وإذا وصف بعض المخلوقات بالامانة فهذا من باب التجاوز فى الوصف، لأن الامانة خلق، ولان الخلق لايكون إلاعن وعى بقيمته ومعرفة بمعناه، ومن هذا خوطب الانسان بالامانة وكلف بها لانه يعرفها ويعرف مفهومها ويستطيع ان يتصف بها .

والأمانة حق على المكلف يتعلق به حق غيره، فإذا اودع الانسان وديعة لدى أخيه، فانه يضمن الوفاء بها بحق الامانه المفوضة فيه، وسواء أكان المؤتمن على هذه الوديعة قد تعاقد مع المودع بعقد قولى ام لم يتعاقد، فان الامانة تقتضى ان يحفظ الانسان الوديعة وان يؤديها إلى اهلها، ولقد روى فى سبب نزوله قوله تعالى:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها﴾ عن ابن عباس انه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة، فلما اتاه قال: أرنى مفتاح الكعبة، فلما بسط يده اليه قام العباس فقال:يا رسول الله بأبى أنت وأمى، اجمعه لى مع السقاية، فكف عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: هات المفتاح يا عثمان، فقال: هاك أمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل يأمره يرد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال:﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها﴾ حتى فرغ من الآية فالرسول ﷺ يضرب المثل على الأمانة فى رد الوديعة، والقرآن قد سمى الودائع "الأمانات"، لأن قبولها أمانة، والمحافظة عليها أمانة، وأداءها عند طلبها امانة فصارت الودائع بالتزام الامانات أمانات كذلك .

---

(١) النساء /٥٨ .

(٢) الأحزاب /٧٢ .

ولقد أئتمن الإنسان على كثير من الأمانات، وهو مطالب برعايتها وحفظها وأدائها إلى اصحابها.

فقد ائتمن على الدين والفرائض، فهو يحافظ على الدين ويدعو اليه الناس، ويحافظ على الفرائض ويؤديها فى اوقاتها، ولقد قال ابن عباس: ان الامانة هى الطاعة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال قبل ان يعرضها على آدم فلم يطقها، فقال لآدم: انى قد عرضت الأمانة على السموات والارض والجبال،فلم يطقها فهل انت آخذ بما فيها قال: يارب وما فيها قال: إن احسنت جزيت وان أسات عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى:﴿وحملها الأنسان انه كان ظلوما جهولا﴾ .

وايما كان تفسير الأمانة المقصود فى الآية، فإن الأنسان قد أئتمن على ودائع، وان امانته تقتضيه ان يصونها وان يحافظ عليها حتى يحين وقت أدائها .

والعلم أمانة فى عنق الإنسان، وقد عهد اليه ان يحفظه وان يعلمه الناس ويرشد به، وقد أخذ الله العهد العام على الناس بأداء أمانة العلم وعدم كتمانه فقال:﴿وإذ أخذ الله مثياق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه﴾[1] ،ولذلك فقد عُدّ علماء اهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبىﷺ ، فيجب على العالم ان يؤدى امانة العلم إلى الناس كما يجب على من اودع مالا ان يرده الى صاحبه .

ولكن كيف يؤدى العلماء أمانة العلم ؟ ان طريق أداء هذه الأمانة تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف: فنشر العلم بتدريسه لطلابه أداء للأمانة، ونشره بجمعه بين دفتى كتاب متداول بين الناس أداء للامانة، ومراعاة الصدق والدقة فى الأجابة عن السؤال أداء للأمانة .

ولقد ائتمن الرسولﷺعلى أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس ، كما ائتمن قبله جبريل فى أدائها اليه ، فسمى كل منهما أمينا، وقال الله لرسوله:﴿يا أيها الرسول بلغ ما

---

(١)آل عمران /١٨٧.

أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾.[1] ، وما كان للوحى أن يكتم شيئا من هذه " الأمانة " فلا يبلغها الرسول ، وما كان للرسول أن يكتم شيئا من القرآن أو يحرفه ، وإلا كان حاشاه ، قد خان الأمانة ، والله عز وجل يقول له:﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلا﴾. ثم يقول له :﴿إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا﴾.[2] والسر بين إثنين أمانة ، فمن أفضى إليك بسره فقد أئتمنك عليه ، فيجب ألا تفشيه أو تبوح به ، وقد جاء فى الحديث :﴿إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة﴾.[3]

وكثير ما يدب الخلاف بين اثنين ، فيعمد كل منهما إلى كشف سر الآخر وإخراج المكنون منه ، فكأن كلا منهما يتخلى عن وديعة صاحبه عنده ، وكأنه بذلك يتنكر للأمانة المفروضة فيه ، وحين يضيع الإنسان الأمانة التى أئتمن عليها ، فقد ضيع صفة من أبرز صفاته الإنسانية وأجلّها.

ولقد حدّث الرسولﷺعن رفع الأمانة فقال:﴿ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة ﴾.[4]

والأمانة من الأمن وهى طمأنينة النفس وعدم الخوف ، ومنها قوله تعالى:﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾[5] .

لأن الانسان إذا أمّن أخاه على وديعة فقد أمن عادينه وأطمأن اليه كما أطمان على وديعة عنده، وإذا سادت الأمانة بين الناس، ساد الأمان، وسادت الطمأنينة .

وإن أزمة المجتمع المعاصر فى فقدان الثقة على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الدول: يشك الفرد فى الفرد فيحمل كلامه على محمل سيئ، ويتوجس منه الشر فى كل

---

(١) المائدة/ ٦٧.

(٢) الإسراء/ ٧٣، ٧٥.

(٣) رواه أحمد وأبو داؤد والترمذى.

(٤) من حديث طويل متفق عليه.

(٥) يوسف / ٦٤ .

تصرفاته، ويعيش الإنسان مشدود الأعصاب مرتعش المشاعر، يده على قلبه يتلمس فيه الأمن المفقود، ويده الأخرى على حبيبه، لتحسس النقود، ولو حلت الأمانة بين الناس لحل الأمن فى الصدور، ولزال الخوف من النفوس، ولحلّ الحب مكان الكراهية والبغضاء فى القلوب، وهذا يحتاج إلى وازع نفسى أساسه الخوف من الله، يقول الله تعالى:﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أئتمن أمانته وليتق الله ربه﴾[1].

وتشك الدولة فى جارتها من الدول الاخرى، فتتسابق كل دولة إحراز السلاح، والأسلحة فى العصر الحديث قد تطورت تطورا رهيبا، ولايجنى المزيد من السلاح إلا مزيدا من الرعب والتوجس.

والأمانة تغرس الأمن محل الخوف، وتزرع الحب محل البغضاء والكراهية، ولكنها لاتصير واقعا يطمئن اليه المجتمع البشرى بمقال يكتب أو محاضرة تلقى أو قانون يفرض، ولكنها تنبثق من ضمائر الافراد إيمانا واقتناعا بان الحياة امانة الله للانسان وبأن الله حيث اختار الأنسان خليفته على الأرض، انما أودعه هذه الحياة، واستحفظه على أمنها وعلى كيانها، فمن حفظ هذه الامانة الكبيرة فقد حقق الجانب الأنسانى فيه وحافظ على الرسالة التى خلق من أجلها، ومن ضيعها فقد ضيع نفسه وكيانه وهو من الخائنين.

ومن هنا كان الإنسان مؤتمنا على حياته الخاصة بينه وبين نفسه، وحياته العامة بينه وبين الناس، فصحة الإنسان وديعة اودعه الله أياها، وجعله امينا عليها، فلا يجوز له ان ياتى من الافعال ما يضر بها، ولايجوز له أن يتناول من الطعام والشراب ما يؤذيها، ولقد بين لنا الرسولﷺ الحكمة فى تنظيم الطعام حيث قال:" ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لامحالة فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه "، والإنسان إذا أقبل على طعام أو شراب وهو يعلم انه يؤذيه فقد خان الأمانة فى صحته.

وعقل الانسان امانة وماله أمانة، فهو مكلف بحفظ عقله بالبعد عن كل ما يذهب

---

(١)البقرة/ ٢٨٣.

به، ولذلك فان الخمر "رجس من عمل الشيطان " لانها تذهب بالعقل الذى هو وديعة الله عند كل إنسان .

وهو مكلف أيضاً بحفظ ماله، فلا ينفقه إلا فى وجوهه المشروعة، ولايبذر فى هذا الإنفاق، فان التبذير يحوله من إنفاق مشروع إلى أسراف حرام، ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾[1] .

أما الأمانة الواجبة بين الإنسان وبين غيره من الناس فإنها تقتضى أن يحرص كل منهم على خير الآخر بوجه عام . وبيان ذلك أن يؤدى الأنسان واجب النصيحة للناس، وهذا الواجب يصدر من رغبة صادقة ونية صافية فى إصلاح أحوالهم فقد قال تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام:"وأنصح لكم"، وعن هود عليه السلام "وانا لكم ناصح أمين" وعن جماعة المؤمنين "أنما المؤمنون اخوة"، ولقد قال رسول الله ﷺ "الدين النصيحة" قالوا:لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[2] . هذه النصيحة أمانة، وهى أحيانا أمانة ثقيلة، لأن أداءها يتطلب نفسا عالية، ولأن قبولها يتطلب قلبا سليما، وكثيرا ما يقصر الناس فى النصيحة لما يجره عليهم من متاعب، وما تسببه لهم من عداوات وأحقاد .واقرب ما يتبادر إلى الاذهان فى أداء الأمانة هو رد الأمانات العينية التى يودعها الناس عند الآخرين، لأن ردها مقياس لأمانة الإنسان واختبار لأخلاقه، وكثيرا ماتقع الخلافات بين الناس لان أحدهم قد أودع لدى الاخر وديعة ثم راح يطلبها فلم يجدها لانها بددت أو غيرت أو انكرت، فتتغير العلاقة وتختفى الصداقة وتدب بين الناس العداوة والبغضاء، ومن هنا دعا الإسلام إلى كتابة الديون، فيكتب للدائن والمدين كاتب بالعدل، ويملى الذى عليه الحق حتى يكون اعترافاً بالدين وتوثيقا له، ولايمنع ذلك أن يذكّره الله بواجب الأمانة وصدق الاقرار حيث يقول:﴿وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئا﴾، ثم يؤثق ذلك كلّه شاهدان، وامانة الشاهدين تتمثل فى شيئين أن يقبلا الشهادة إذا ما دعيا إليها

---

(١) الأسراء /٢٧ .

(٢) رواه مسلم .

"ولايأب الشهداء إذا ما دعوا"، وان يكونا عادلين في أداء الشهادة ودقيقين في تحديد الدّين ﴿ذلكم اقسط عند الله، واقوم للشهادة، وادنى الاترتابوا﴾[1] .لا ينافي ذلك ان ياتمن كل انسان أخاه، وان تكون الامانة فيصلا عادلا بين المتقاضيين،فانه بالأمانة تزكو النفوس وتتقارب القلوب ويسود الوفاق بين الناس﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن امانته وليتق الله ربه ولاتكتموا الشهادة، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾[2] .

شكر المنعم على نعمه بالأنفاق فى سبيله

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من تذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار. ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرلكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[3] .

ان الله يعطى الدينا لمن يحب ولمن لايحب، ولايعطى الدين إلا لمن احب، ونحسب ان من معالم إعطاء الدين للمؤمنين الذين يحبهم الله، انه اعطاهم القدرة على تصريف أمور الدنيا فى ظل الدين، وعلى صبغ الحياة التى يحيونها بالدين الذى آمنوا به. ولقد اعطى الله المال لكثير من عباده، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، فيهم الحكام وفيهم السفهاء .

ولم يجعل الإسلام للمال قدرة فاعلة إلا بالعقل الذى يدبر هذا المال، والغاية من تدبيره هى التى تحدد نصيبه من الخير أو الشر، فكم من ملايين تنفق فلا يزيد بها منفقها إلاقربا من النار، وكم من قروش قليلة تخرج من جيب صاحبها فتكون له ذخرا يوم القيامة

ولقد حذر الله من الشح ونسبه إلى النفس فقال ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[4] لأن النفس إذا أصيبت بالشح فقد إنعدمت فيها معانى الخير بوجه عام

---

(١) البقرة / ٢٨٢.

(٢) البقرة / ٢٨٣.

(٣) البقرة / ٢٦٨-٢٧١ .

(٤) الحشر / ٦

ومنها البذل والسخاء ، فمن أنفق بيده وآذى بلسانه فإنه لم يوق شح نفسه و لم يكن من المفلحين ، ولقد رسم ا لله صورة المن الذى يبطل الصدقة فقال : ﴿ يأيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن با لله واليوم الأخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شئ مما كسبوا وا لله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] .

وجعل الرسول ﷺ هذا الشح غير مقصور على قبض المال ومنعه عن مستحقيه ، ولكنه كذلك مصدر لكثير من الرذائل والكبائر . فقال فيما يرويه جابر رضى ا لله عنه : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامه ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم " [2] .

وهذه الآيات التى تصدرت هذا الحديث تبين أن الشيطان يوسوس للإنسان ويخوفه من الإنفاق الذى يذهب بالمال ويقضى إلى سوء الحال ، ومن ثم فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يأتى به الزمن من أحداث .

ولذا فقد كان هذا التخويف من الإنفاق مرادفا للأمر بالفحشاء ، فإن هذا الأمر عبارة عما تولده الوسوسه من الإغراء بالفحشاء ، ومنها البخل ، ولقد كان البخل عند العرب من أفحش الفحش .

ولقد جعل ا لله الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم بما يجذب إلية من قلوب الناس ، وهذا الفضل من الجاه بالحق لا بالباطل ، وقد أثر عن ابن عباس رضى ا لله عنهما أن الفضل الذى يعد ا لله به عباده مع المغفره هو ما يخلفه ا لله تعالى على المنفق من الرزق ، ويؤيدة قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفة وهو خير الرازقين ﴾ [3] .

---

[1] البقرة /٢٦٤

[2] رواه مسلم .

[3] سبأ /٣٩

وقد ورد فى الصحيحين : " ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان . يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الأخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا " ومعنى هذا الدعاء أن من سنه الله أن يخلف على المنفق بما يسهل له من أسباب الرزق ويرفع من شأنه فى القلوب، وأن يحرم البخيل من مثل ذلك .

وإذن فوعد الله للمؤمنين يتمثل فى شيئين : الأول لخير الآخرة وهو مغفرة الذنوب التى المت بهم فى الدنيا ، والثانى لخير الدنيا وهو الفضل الذى يعطيه إياهم إذ يخلف عليهم ما ينفقونه بركة ورزقاً ومهابة فى قلوب الناس .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فمن أعطاه الله نعمة طالبه بحسن التصرف فيها ومن أحسن التصرف فيها فذلك هو الفضل العظيم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : : ذهب أهل الدثور – أى الأغنياء – بالدرجات العلى والنعيم المقيم : فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : " أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاه ثلاثا وثلاثين مرة " فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ ﴿ ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ﴾ [1] .

أى أنه فضل إختص به بعضاً من خلقه ، وما دام قد اختبرهم بالمال والمال فتنة ، فلم يأخذ بريتها عيونهم ، و لم تشغل كثرتها قلوبهم ، وانما أدوا حق الله فيها ، وأنفقوها فى وجوهها المشروعة ، فإن لهم الفضل وفضل الله يؤتيه من يشاء . ولا يجوز لمسلم أن يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه ، وما دامت هذه النعم من فضله فانه لا راد لفضله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده

---

[1] متفق عليه .

وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

ولكن حسد المؤمن لون من الغبطة والتنافس فى وجوه الخير ، ولا يكون فى ذلك الوقت مذموماً ، لأنه يدل على استعداد النفس للعمل الصالح وتسابقها إلى الخيرات .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىﷺ قال:" لاحسد إلافى اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"[2] ، وكلاهما توظيف لنعمه الله فيما خلقت من أجله، فتلاوة القرآن والصلاة به آناء الليل وآناء النهار إحياء للقلوب "ألابذكر الله تطمئن القلوب"، وإنفاق المال فى وجوهه المشروعة إيمان بفضل الله وشكر له على نعمته .

ولقد أخبر الله ﷻ أنه مطلع على نيات عباده فى إنفاقهم وصدقاتهم ونذورهم فقال:﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ ، فإن الله يجازى على القليل كما يجازى على الكثير، ولأن علمه محيط بكل عمل وقصد فإنه يعطى على النية التى تدفع إلى العمل إن كانت نية صالحة، ويعاقب عليها إن كانت نيه فاسدة، وهى فى ذلك الوقت ظلم لصاحبها، إذ الظالمون فى مقام الأنفاق هم الذين ظلموا أنفسهم فلم يزكوها من البخل، و لم يطهروها من الرياء والمن والأذى، وظلموا الفقراء كذلك ماأوجبه الله لهم، وظلموا أمتهم حيث تركوا الإنفاق فى المصالح العامة فكانوا قدوة سيئة لغيرهم .

وفى هذا المجال فإنه يجب تنبيه الأغنياء إلى واجبهم نحو الفقراء، فلقد أئتمنهم الله على ثروة وضعها فى أيديهم، وائتمنهم على إخوة وضعهم فى رعايتهم وجعل لهم حقا معلوما فى مال الأغنياء، فإذا تعاون الأغنياء مع الفقراء فقد قدروا مسئوليتهم وعرفوا حق المال الذى فى أيديهم، وإذا يخلوا عليهم فقدتربصوا بانفسهم البوار فىالدنياوالعذاب فى الاخرة .

---

[1] فاطر /٢ .

(٢) متفق عليه .

و لم يجعل الإسلام كسب المال غاية فى ذاته، وإنما المال وسيلة إلى تحقيق الغاية الشريفة التى خلق الإنسان من أجلها على الارض، فالانسان مخلوق فى هذه الحياة وا لله غايته، وهو يفعل الخير يبغى به وجه ا لله، ويخرج الصدقة يطلب بها رضاه، وينفق المال فى سبيله ليشترى بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ومن إحساس الغنى بواجبه فى ماله، ومن إحساس الفقير بحقه فى هذا المال، يتولد شعور إنسانى بالمودة والتكافل، فلا يتعالى غنى على فقير لأنه أعطى، ولايستخذى فقير أمام غنى لانه أخذ، فالمال مال ا لله، والأغنياء وكلاؤه عليه، والفقراء عياله، وكما جاء فى الحديث القدسى "فإذا بخل وكلائى على عيالى أذقتهم وبالى ولا أبالى" .

ولقد جاءت الآيات أيضاً تحث على الصدقة سرا وجهرا، فقد يجهر الانسان بصدقاته ولكنه لايبغى من وراء ذلك رياء ولا يطلب ثناء، وانما يفعل ذلك ليقتدى غيره به، وليتذكر الناس صدقاتهم فيخرجوها، وحين ذلك فإذا أبديت الصدقات تحيط بها هذه النية الصالحة "فنعماّ هى"، ولكنها إذا اختفت عن عيون الناس، وكان سرا بين الغنى والفقير أمام ا لله فهى خير، فليس كل مظهر لعمله مرائيا، ولكن كل مخف لهذا العمل فهو بعيد عن الرياء .

ولقد خص بعض المفسرين الصدقات التى يجب إخفاؤها بصدقات التطوع، لأن الفرائض كالزكاة لارياء فيها إذ أنك تخرج قدرا مفروضا وحقا معلوما ان تاخرت عن أدائه فقد قصرت، وقد يكون إبداء الفريضة إشهارا لشعيرة من شعائر الإسلام، ولو أخفيت لتبادر إلى الأوهام أنها منعت فيمنع المتوهمون كما منع الآخرون، وفى ذلك تعطيل لفريضة من فرائض ا لله .

ولأن من شأن الفرائض ان تكون عامة فلا محل للرياء فيها، لان المرائى حينئذ لايكون مؤمنا بفرضيتها .

ولأن ظهور الإسلام وقوته بإظهار شعائره وفرائضه، بل ان بعض العلماء قالوا:" إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به وان كان تطوعا " .

وايما كان الأمر فإن الإسلام يحث على الإنفاق، ويحرر المسلم من عبادة المال، ويجعل البدل والإعطاء وسيلة إلى رضاء الله عزوجل﴿فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى. وما يغنى عنه ماله إذا تردى. إن علينا للهدى. وان لنا للآخرة والأولى﴾ .

نعمة الصبر على البلاء

يقول الله عزوجل﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[1] .

إن الصبر فضيلة من أسمى الفضائل الإنسانية، وهى مقياس صادق لحسن إيمان العبد وقوة صلته بالله عزوجل، ومن أجل علو منزلتها ورفعة شأنها، فقد ذكرت فى القرآن سبعين مرة، ولم تذكر فضيلة آخرى فيه بهذا المقدار .

ولقد قرن الصبر بالصلاة فى قوله تعالى:﴿واستعينو بالصبر والصلاة﴾[2] ، وفى قوله:﴿وأمر أهلك بالصبر وأصطبر عليها﴾[3] ، لأن الصلاة والصبر معا ذريعة الاستعانة على ما يلاقى المؤمنون فى طريق الحق من الشدائد، كما قرن الصبر بالحق فى قوله:﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[4] ، لأن الداعين إلى الحق لابد لهم من التذرع بالصبر الذى يمنحهم القدرة على مواصلة السير فى طريق الدعوة، وطريق الدعاة إلى الحق غالبا مفروش بالأشواك .

والصبر ملكة الثبات والاحتمال: تهون على صاحبها كل ما يلاقيه، وتربى فى نفسه ملكات الخير، فما من فضيلة إلا وهى محتاجة الى الصبر، ومتى رسخت ملكةالصبر فى نفس الإنسان سمى صاحبها "صبورا" أو "صبارا" ولاتتحقق هذه الملكة إلابعد رياضة

---

(١) البقرة/ ١٥٥-١٥٧ .

(٢) البقرة/ ٤٥ .

(٣) طه/ ١٣٢ .

(٤) العصر/ ٣ .

روحّية، وتعّود نفسى، ولذلك فقد أمر ا لله تعالى به، وإنما يكون الأمتثال لأمر ا لله بتعويد النفس على تحّمل المكاره ومواجهه الشدائد .

وعلى ذلك جرى النبىﷺ ، وأصحابه عليهم الرضوان، فقد كان الصحابة كلما أشتد عليهم الأذى، وضاقت بهم السبل، لجئوا إلى الرسولﷺ فمسح على قلوبهم الوجلة بالأمان، وأسكن فى نفوسهم الضجرة الصبر، فعن خباب بن الأرتّ قال: "شكونا إلى رسول ا للهﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألاتستنصرلنا ؟ ألاتدعو لنا ؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط من حديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. وا لله ليتمن ا لله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا ا لله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[1] وهذا لون رائع من الصبر وهو الصبر على الأذى فى سبيل العقيدة، وهو يحتاج إلى قوة من الإيمان عالية، ودرجة من الأرادة صلبة، ويتطلب فهما عميقا لمنزلة الصبر عن الإيمان، ولعاقبة الصبر عند ا لله، والذين يصبرون على الأذى فى سبيل ا لله إنما يتاجرون مع ا لله ﴿ألا إن سلعة ا لله غالية، ألا إن سلعة ا لله الجنة﴾.

وا لله دائما مع الصابرين، يمدهم بعونه إذا صار الصبر وصفا لازماً لهم، ويعدهم بالنصر والظفر إذا كان الصبر من أسلحتهم، ومن كان ا لله معينه وناصره فلا يغلبه شىء . وإن من سنة ا لله عزوجل أن الأعمال العظيمة لاتتم إلابالثبات لها والاستمرار عليها وهذا لايكون إلا بالصبر، فمن صبر فهو على سنة ا لله، وا لله معه يؤيده ويرعاه .

ولقد نزلت الآيات الصابرين المستحقين لبشارة ا لله بقوله﴿ الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون﴾، وليس المراد بهذا القول أن يتلفظوا بها كلمات على اللسان دون أن تختلط معانيها بالقلب بل المراد بهذا القول أن يعبر عن حالهم، وعن إيمانهم العميق بأنهم من ا لله و إلى ا لله، نواصيهم بيده، ومصيرهم اليه، فهو الذى بيده

---

(١) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى .

ملكوت كل شيء، ولا يفعل إلا ما سبقت به الحكمة وارتضاه النظام الإلهى.

وحين ذلك ينطلق اللسان بالكلمة يحركه إيمان بمعناها وتسليم بمغزاها، واصحاب هذا الأعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيمانا وتسليما، بحيث لا يسيطر الجزع على نفوسهم، ولاتثبط الأحزان همهم، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة وقوة يقين، وذلك مصداق قوله تعالى:﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾[1]

ولا ينافى الصبر والتثبيت ما يكون من حزن الإنسان عند نزول البلاء . فالحزن غير الجزع : الحزن من الرحمه التى أودعها الله فى نفوس عبادة ، ترقق مشاعرهم ، وتهذب نفوسهم ، وتعطف بعضهم على البعض ، والجزع ضعف يهز المشاعر ، ويحطم النفوس ويذهب بصلابتها أمام النوازل ، وهو الذى يحمل صاحبه على ترك الأعمال المشروعة لأجل المصيبه ، والأخذ بعادات وأعمال مذمومه ضارة ينهى عنها الشرع ويستقبحها العقل . ولقد ورد فى الصحيحين أن النبى - ﷺ - بكى عندما حضر ولده ابراهيم الموت ، فقيل له أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فأخبر أنها الرحمه ، وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، وانا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " [2] .

ولقد ذكر الله البلاء ، وبشر الصابرين عليه ، وذكر الوصف الذى يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء المبشر به فقال : " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون " .

فأما الصلوات فهى حسن رعايه الله لهم فى الدنيا بالتخفيف عن مشاعرهم وتسكين نفوسهم ، وهى إعلاء منزلتهم فى الآخرة بغفران ذنوبهم والتكفير عن سيئاتهم ،

---

(١)آل عمران / ١٧٣-١٧٤ .

(٢) رواه الشيخان من حديث أنس .

فلقد قال الرسول - ﷺ - مرة لأبى بكر : يا أبا بكر ألست تصاب ؟ ألست تحزن ؟ أليس تصيبك اللأواء ؟ - أى الشدة - قال : بلى . قال : فهذا بهذا " .. أى أن المصيبة التى تلم بك ، والحزن الذى يسكن قلبك ، والشدائد التى تواجهك .. كلها من موجبات رحمة الله إذا قابلها الإنسان بالصبر والرضا بقضاء الله .

وأما الرحمه فهى ما يكون لهم فى المصيبه من حسن العزاء ، وبرد الرضا والتسليم بالقضاء ، وهى رحمه يشعر بها المؤمن الصابر حين ينزل الله عليه سكينته وأمنه فيرى أن قدر الله غالب ، وأن كلمه الله نافذة ، وأن نعم الله منح ، إن شاء وهبها وأن شاء سلبها والذين يعقلون ذلك " هم المهتدون " إلى ما ينبغى عمله فى أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ويذهب البلاء بالأمل فى قلوبهم ، ولا يحل الحزن محل الإيمان فى صدورهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين للسعادة الآخرة بعلو النفس وتزكيتها بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال . والمؤمن مأجور على الصبر فى الضراء كما هو مأجور على الشكر فى السراء ، لأن الصبر والشكر كليهما تعبير عن إيمان الإنسان بارادة الله وتسليم لمشيئته ، فهو يصبر عند البلاء لأن الله يريد أن يبتليه ، وهو يشكر عند النعمه لأن الله يريد أن ينعم عليه .. وهو فى كلتا الحالتين مأجور . عن أبى يحيى مهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " [1] .

على أن من أجل مراتب الصبر وأعلاها منزله عند الله الصبر عند الموت ، وفراق الأحباب ، لأن الموت حق يمتحن الله به إيمان المؤمنين، وهو سبحانه تعالى " خلق الموت والحياه ليبلوكم أيكم أحسن عملاوإذا كان فى الموت مرارة الفراق ، ولوعه الوداع ، فإن فى الصبر عليه برد الراحة وأنس اليقين .

وسيظل الموت كلمه الله القائمه على رءوس الأحياء ، لا يستطيعون له دفعاً ،

---

[1] رواه مسلم .

ولا يجدون عنه محيصا ، وهو انتقال من دار فناء إلى دار خلود وبقاء ، فإذا لم يكن من نزوله بد ، فليكن عند نزوله قلب مؤمن بالقضاء ونفس خاشعة تسكن عند البلاء ، وتسليم كامل لله الذى له ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل . وهذا التسليم يتحول إلى سخط فى نفوس الجازعين ، ويتحول إلى رضا فى نفوس المؤمنين ، ولكن كلمه الله نافذة لا يردها سخط ولا ينفعها رضا ، وان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

والمؤمن كغيره من الناس يدركه الضعف البشرى فيبكى ويحزن عند المواجهه الأولى لألم الفراق ، ولكنه يعود بعد ذلك إلى ايمانه ، فيستظل بقدر الله ، ويسلم بقضائه ويفر من لهيب الجزع إلى جنه الرضا ، حيث هى السلوى عند المصيبه ، والمفزع عند وقوع البلاء ، فإذا جهل الإنسان عند وقوع الصدمه فليرشده أخوه ، وإذا نسى فليذكرة ، فخير الأصحاب - كما يقول نبينا عليه السلام - " من اذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيته ذكرك " . ولقد روى عن أنس - رضى الله عنه - أنه قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمه - رضى الله عنها - : واكرب ابتاه . فقال : " ليس على أبيك كرب بعد اليوم " فلما مات قالت : " ياأبتاه .. أجاب ربا دعاه ، ياأبتاه .. جنه الفردوس مأواه .. باأبتاه إلى جبريل ننعاه .."[1] .

وما دام الصبر عند الفراق تسليما بقضاء الله وتعبيراً عن الرضا بمشيئته ، فان الله يعوض صاحبه راحه فى الدنيا لا يحس بردها المتبرمون ، وأجرا فى الآخرة لا يناله الا المتقون ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : ما لعبدى عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتبسته الا الجنه"[2] وان القرآن ليرسم صورة مشرقة لجزاء المؤمنين الصابرين : الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم " فيقرنهم بالأوفياء والمتقين والمقيمى الصلاه ، والمنفقين فى سبيل الله وهؤلاء لهم درجات العلا يوم

---

[1] رواه البخارى .

[2] رواه البخارى

القيامه ، لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، واستضاءوا بإيمانهم فأنار لهم حياتهم ، وحين يتحدث القرآن عن جزاء هؤلاء جميعا ، يجعل الملائكة يستقبلونهم بقولهم : سلام عليكم بما صبرتم " وكأن الصبر رأس الأعمال الصالحه وملاكها يوم القيامه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ أولئك لهم عقبى الدار .. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكه يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [1]

---

[1] الرعد /٢٢ - ٢٤